عمر الخيام

كما أعرفه

لمحمود المنجوري

الفصل الأول

هل عمر الخيام خرافة ؟

قرأت في سنة ١٩٢٧ بحثاً في جريدة فتى العرب الصادرة عن دمشق ، مقالاً ترجمه الاستاذ احمد شاكر الكرمي عن جريدة «المورنج بوست» ، تناول موضوع جدلٍ قام يومئذٍ بين عالمين جليلين من علماء الانجليز المستشرقين وهما الدكتور ملر ودنسن رس إذ أنكر الاول الخيام ككائن له وجود ، وقال بأنهُ خرافة موضوعة ، وأيد رأيه هذا بنصوص ، وعارضه السير دنسن رس ، وعمد الى نقض أقواله بنصوص أوردها

ولقد رأيت يومئذٍ ان الرد على انكار وجود الخيام بالوضع الذي ساقه السير رس يحتاج الى تدعيم من ناحية الوثائق التاريخية ، فعمدت الى درس هذا الموضوع وبعثت به الى « المورنج بوست » أدليت فيه بما وصل اليه درسي من وثائق الى هذا التاريخ ، يهدم زعم الدكتور ملر ، ويقيم الحجة على ان بعض العلماء المستشرقين على الرغم من طلاوة أبحاثهم لا يمكنهم أن يلعبوا بإمام الباحث الشرقي في أدب بلاده

كتب الدكتور ا . ه ملر قال : أعلمني ان عدداً من محبي عمر الخيام سيقومون برحلة من انكلترا الى نيسابور ابتغاء تجديد الضريح الذي أخفت عليه الأيام والذي يظن أنهُ يضم رفات عمر الخيام الذي ينسب اليه ذلك الشعر الذي استمد منه فتزجرالد ديوان الشعر الشهور والمسمى برباعيات عمر الخيام

وانهُ لجديرٌ بنا أن نتساءل هل لعمر الخيام دفين نيسابور علاقة بالرباعيات التي كانت أصلاً لما ترجمه فتزجرالد ؟ اني منذ ثلاثين عاماً أبحث هذا الموضوع في عناية وأظن ان الوقت قد حان لكشف النقاب عن خرافة عمر الخيام :

ما هو معنى الرباعيات في اللغة الفارسية ؟ ان [illegible] من القطوعات

الفصرية لا صلة بين بعضها وبعض ولا وحدة لها، هي مجموعة في كتاب خلال سنوات عديدة، ويشبهها بعض الشبه (السجل الادبي) الذي كانت تضعهُ السيدات في صالونات الادب في القرن الماضي ليدون فيه الشعراء الذين يزورونهن شيئاً من نظمهم الارتجالي وقد زالت اليوم هذه العادة

فديوان الرباعيات هو مجموعة لا انسجام فيها، ولكن فتزجرلد أخرج منه قصيدة متلاحمة ذات وحدة متماسكة بعد نفرة واضحة. إلاّ ان الذي يستعصي على الحل هو نسبة تلك المجموعة الفارسية التي لم يرَ فتزجرلد سواها الى عمر الخيام، فقد فحصت بنفسي تلك المجموعة في مكتبة بودلين فلم أجد اسم عمر الخيام مذكوراً فيها على الاطلاق

فمن هو عمر الخيام هذا الذي جاء باسمه فتزجرلد الى عالم الادب الانجليزي سنة ١٨٥٩ وجعلهُ معروفاً مشهوراً؟ لقد راجعت تواريخ بلاد الفرس وكتب الادب الفارسية، وسألت كثيراً من أدباء الفارسيين فوجدت التاريخ يشير اشارات خاطفة الى عمر الخيام، أما كتب الادب الفارسية (ولا أعني مؤلفات دي بيلو أو فون هامر أو سواهما من الناقلين) فهي خالية من أية اشارة الى الخيام على انهُ شاعر

وأما ما روي عن حياة الخيام فقليل، وهو على قلّته محوط بشبهات لا يقبلها المؤرخ العصري ولا يرتضيها، وأقدم مصدر لأخبار الخيام هو «الوصية» المنسوبة الى نظام الملك صديق عمر الخيام وزميله في طلب العلم، الذي كان وزيراً للسلطان الب ارسلان بن ارطغرل بك التتري مؤسس دولة بني سلجوق

***

قال نظام الملك في وصيته ان أباه أرسلهُ الى نيسابور ليتلقى العلم على العالم المشهور الامام الموفق النيسابوري، وهناك لقي تلميذين في مثل سنه أحدهما الحكيم عمر الخيام والثاني الحسن بن الصباح فنشأت بينهم صحبة وصداقة وقال في عمر إنهُ من أهل نيسابور؛ أما الحسن فقد كان أبوه زنديقاً، وقد صار الحسن فيما بعد زعيم طائفة الاسماعيلية؛ التي يعتقد أفرادها بوجوب ذبح جميع من يخالفهم من غير تمييز ولا تفريق. وتقول (الوصية) المبهمة ان الرفاق الثلاثة اتفقوا على ان يجتمعوا في مستقبل الأيام فاذا كان أحدهم قد أصاب ثروة أو جاهاً أو نعمة فاسهُ الآخران حسن حظه. ولما تقلد نظام الملك الوزارة وعرف ذلك صاحباه، ذهبا اليه يطالبانه انجازاً لوعده، ولم يذكر نظام الملك في وصيته ما أعطاه للحسن، ولكنهُ ذكر أنهُ أجرى على عمر الخيام رزقاً قدره ١٢٠٠ مثقال من الذهب، تعطى له من خزينة نيسابور، ليستعين بها على متابعة درس الفلك. وفي ذلك الوقت خلف الملك شاه اباه الب ارسلان في الملك

سنة ١٠٧٢ م وكان مشتغلا باصلاح التقويم ، فانتدب عمر وسبعة من العلماء للقيام بتلك المهمة العظيمة فاضطر عمر الفلكي الى الانتقال الى مرو لهذه الغاية

والمؤرخ الذي ينظر بعين الفاحص الى هذه النصوص التاريخية لا يرى الا انها ملفقة موضوعة ، لقد أكد لنا دي بيلو ان عمر الخيام توفي في نيسابور سنة ٥١٧ هـ أي سنة ١١٢٣ م ، ومن الواضح ان نظام الملك مات بعد وفاة الخيام بدليل انهُ ذكر في وصيته ان الخيام مدفون في نيسابور ، ووصية نظام الملك يجب ان تكون قد كتبت في أوائل سنة ١٠٩٢ م لأن الملك شاه عزله من الوزارة في تلك السنة ، وقد قتل بخنجر صديقه الحسن بن الصباح قبل نهاية السنة ، كما ان الملك شاه مات بعد شهور قليلة من طرد وزيره وفي هذا ما يناقض قصة عمر الخيام من أساسها وينوريها في الهواء

وقد يقول قائل ان مخطوط الرباعيات الموجود بين أيدينا فيه دليل على حقيقة عمر الخيام ، وليس الأمر كذلك ، فان ذلك المخطوط يقول فيه فيتزجرلد نفسه « ان ذلك المخطوط المشوّه تشويهاً لا مثيل له بسبب النسخ ، هو نادر الوجود في الشرق فلا يمكن الحصول عليه وايصاله الى الغرب ، ولا يوجد من الكتاب نسخ في (اندیا- هاوس) ولا في المكتبة الأهلية بباريس ، ولا نعرف بوجود نسخة في انجلترة سوى النسخة الموجودة في مكتبة بُدلين التي كتبت سنة ١٤٦٠ وهذه النسخة لا تحتوي الا على ١٥٨ رباعية ، وتوجد نسخة أخرى في مكتبة الجمعية الاسيوية في كلكتا تحتوي ، على الرغم من انها غير تامة ، على ٥١٦ رباعية فيها كثير من المكرر والمحرف

***

وقد أشار الاستاذ كول الى « نسخة نادرة جداً طبعت في كلكتا سنة ١٨٣٦ وهي تحتوي ٤٣٦ رباعية مع ذيل يضم ٥٤ رباعية ليس لها وجود في الأصل

ويكفي ان ينظر القارىء الى هذه الأقوال التي صرح بها مترجو الرباعيات المنسوبة الى عمر الخيام ، ليعرف في وضوح ، انه لا توجد نسخة أصلية صحيحة للرباعيات كما كتبها عمر الخيام نفسه . وقد اعترف فتزجرلد بأن نسخة مكتبة بُدلين التي اعتمد عليها في ترجمته ، لا يرجع عهد كتابتها الى أبعد من سنة ١٤٦٠ م ؛ فهي على هذا قد كتبت بعد وفاة عمر بنحو ٣٧٠ سنة ، ويعتقد فتزجرلد ان تلك النسخة مدخول فيها ومحرفة

وأول طبعة من ترجمة الرباعيات لفتزجرلد احتوت ٧٥ رباعية وقد زادت الطبعة الثانية حتى بلغت ١١٠ رباعية أما الطبعتان الثالثة والرابعة فقد احتوتا مائة رباعية ورباعية ، ومما لاشك فيه ان فتزجرلد كان يزيد في كل طبعة كثيراً من الرباعيات التي لا وجود لها في الأصل

فما الذي يصنعهُ الباحث في قصيدة أو طائفة من المقطوعات الشعرية مات الشاعر الذي تنسب اليه في سنة ١٠٩٠ أو سنة ١١٢٦ ولم تعرف اشارة في الشرق حتى في مسقط رأسه فارس أو في الهند، الاّ في القرن الثامن عشر، وقد اختلفت نسخ ديوانه، فمنها ما حوى ٦٣٢ شطرة من الشعر ومنها ما حوى ٢٠٥٤ شطرة، وأقدم نسخة من تلك النسخ دوّنت بعد أربعة قرون، على وجه التقريب، من وفاة المؤلف

ان علماء اللغة الفارسية يحكمون على نسخة مكتوبة بدلين اذا اطلعوا عليها بأنها خليط من شعر حافظ وسعدي ومنطق فريد الدين العطار الذي كان يشتغل بالنسخ في شيراز، وقد جمعت كلها وكتبت سنة ١٤٦٠ وأضيفت اليها الملح والمقتبسات والأمثلة التي لا يوجد مثلها في كتاب ويليام جونس الذي سماه « النحو الفارسي ». وعليه فان عمر الخيام خرافة، وان أشعاره انما هي أقوال جمعت ثم نسبت الى هذا الاسم الخيالي الجميل

هذا ما كتبه الدكتور مللر في «الورنج بوست» وهو في جملته مغالطات آخذ بعضها برقاب بعض، وما في رد السير دلسن رس، ثم بتعقيبي عليه الذي أرسلته الى الورنج بوست

قال السير دلسن رس: لا أريد أن أدخل في جدال مع أحد في موضوع عمر الخيام والسبب في ذلك عدم وجود موضوع للجدل، ولكني أريد أن أدحض بعض « الحقائق الاساسية » التي زعمها الدكتور مللر والتي بني عليها نظريته القائلة بأن عمر الخيام خرافة

ان حكاية الرفاق الثلاثة (عمر الخيام ونظام الملك والحسن بن الصباح) حكاية ملفقة ومتفق على وضعها في التاريخ الادبي لهذا الشاعر، فهي رواية وليس لقصتها إلاّ محمل لا طائل تحته

لقد كتب الدكتور مللر يقول: فما الذي يصنعهُ الانسان في قصيدة أو طائفة من المقطوعات الشعرية مات الشاعر الذي تنسب اليه . . . وأجيب عن هذا القول بما يأتي:

١ — لقد توفي عمر الخيام حوالي سنة ١١٢٣ ولدينا تفصيلات عنه كتبها رجل اجتمع به فعلاً سنة ١١١٢ وزار قبره في نيسابور سنة ١١٣٥

٢ — لقد أشار اليه كشاعر مؤلفون ألفوا كتباً في السنوات الآتية ١١٧٦ م و١١٩٠ م و١١٩٨ م و١٢٢٤ م و١٢٤٠ م وقد نقل احدى رباعياته (الجويني) مؤرخ المغول المشهور — وذلك سنة ١٢٦٠ م وذكرت ثلاث عشرة رباعية لهُ مكتوبة في مجموعة أشعار فارسية كتبت سنة ١٣٤٠

٣ — أمر اختلاف المجموعات في عدد الرباعيات طبيعي ولما كان الخيام مرغوباً في شعره فلا غرابة اذا نسبت اليه مئات من الرباعيات التي نظمها سواه

٤ — أما ان النسخ القديمة من الرباعيات نادرة فهذا أمر طبيعي ليس فيه ما يستغرب أو يدل على شيء

٥ — ألف عمر الخيام عدة كتب علمية لم يبق منها على تمامها إلا اثنان ، رسالة في الجبر طبعت بالعربية والفرنسية في باريس سنة ١٨١٥ ورسالة في تعريفات اقليدس محفوظة في مكتبة ليدن. أما دعوى زيادة فتزجرلد على الرباعيات فقد آن وقت ردها ان فتزجرلد اتبع الأصل في ترجمته ولكنه لم يلتزم نقل الكلمات بل نقل المعاني وقد كان يترجم الرباعيتين أو أكثر في رباعية واحدة وينبغي لي أن أختم ردي بكلمة في الرباعيات نفسها ، تطلق الرباعية عند الفرس على مقطوعة من الشعر ذات أربعة أسطر في موضوع واحد . وقد نظم هذا النوع من الشعر كل شعراء الفرس ولكن عمر الخيام امتاز عليهم بأسلوبه الفلسفي وتشاؤمه وقد جمعت هذه الرباعيات بعد وفاة الخيام ورتبت على حروف الهجاء ، ولكن فتزجرلد لم يعبأ بهذا الترتيب بل عمد في ترتيب ما ترجمه ملاحظة الموضوع لا حروف الهجاء في القوافي

ويجب ألا يقرب عن البال ان العلامة كول عميد جامعة كمبردج وهو أكبر مستشرق أخرجته انجلترة على الاطلاق هو أول من عرّف فتزجرلد بعمر الخيام ووجهه الى رباعياته ، وحمله فوق ذلك على دراسة شعره . على أن فتزجرلد لم يكن يفهم الاصل الذي يترجمه فهماً حرفيًّا بل كان يترجم مستوحياً المعاني التي ألهمت الخيام ، ومع ذلك فليس في مكنة أي ناقد أو متصدٍّ لترجمة فتزجرلد أن يجد نقصاً أو تقصيراً يغيّر المعاني أو ينقص منها أو يشوّهها

على ان رد السير دنسن رس على ما فيه من قوة البحث العلمي لا يخلو من مآخذ ، فقد أنكر هو الآخر حكاية الرفاق الثلاثة وذكرها على انها حكاية ملفقة وسلم بتلفيقها ولم يقدم دليلاً عليها على زعمه هذا مع ان هذه الحكاية مذكورة في كتب استشهد بها السير دنسن نفسه في رده على الدكتور ملر

انها لجرأة على العلم وعلى التاريخ أن يقوم باحث فينكر شخصية علمية تاريخية دون أن يناقش الوسائل والاسباب التاريخية التي ذكرت هذه الشخصية ، وأن يترك الامر موضع شك مريب دون حجة أو برهان جديد ، فالدكتور ملر مبطل وليس له دليل ، وكان عليه أن يناقض الوثائق الآتية التي ذكرت عمر الخيام نقضاً علميًّا . من ناحية التاريخ الادبي ومن ناحية ثقة المتأدبين فيها ، واني لأسوق هذه الوثائق الى ما أشار اليه السير دنسن راجياً أن يكون في هذا توثيقاً لرد العلامة السير دنسن ، وهذه الوثائق انما هي المصادر العلمية والتاريخية التي أعتمد بها البحث في عمر الخيام بوصفه شاعراً وعالماً وفيلسوفاً وزعيماً من زعماء الباطنية في الاسلام